

الجدل الكلامي عند المغاربة: "بين الانتشار والانهيار 2-5هـ/ق 8-11م"

Verbal controversy among Moroccans "between spread and decline 2-5h/8-11AC"

آمال بن حاوش¹، نور الدين باب العياط²¹ جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، مخبر تاريخ الإنسان والعمران والتراث في منطقة

حوض الشلف، a.benhouche@univ-chlef.dz

² جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، n.babelayat@univ-chlef.dz

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/05/12

تاريخ الاستلام: 2025/01/19

ملخص:

جاء هذا المقال ليعيد النظر في فكرة سائدة لدى البعض مفادها أن المغاربة لم يعرفوا جدلاً في علم الكلام ولا في الأصول بقدر ما عرفوه في الجانب الفقهي، وليؤكد على وجود جدل كلامي في بلاد المغرب في خضم السياق التاريخي والفكري الذي عرفته هذه الفترة والحيثيات العقديّة التي أفرزته ذلك أن وفود وانتقال المذاهب العقديّة الى بلاد المغرب أدى إلى وجود حتمية جدل كلامي بينها، ولذلك شاع الجدل بين المغاربة وانتشرت المجالس الكلامية واشتغلوا بالمناظرة والرد على المخالفين.

كلمات مفتاحية: الجدل، علم الكلام، المذاهب العقديّة، الانتشار، الانحسار.

Abstract:

This article aims to reconsider a prevailing idea among some that Moroccans did not engage in debate within the fields of theology or foundational principles as much as they did in jurisprudence. It emphasizes the existence of theological discourse in Morocco against the backdrop of the historical and intellectual context of that period, as well as the doctrinal circumstances that produced it. The arrival and transition of doctrinal schools to Morocco necessitated theological debates among them, leading to a proliferation of discussions among Moroccans, the spread of theological gatherings, and engagement in debates and responses to dissenters.

Keywords: Controversy ;Theology ;Doctrinal doctrines ;Spread ;Ebbing.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

ساد الاعتقاد أن معظم إشتغال وإهتمام المغاربة كان بالفقه الخالص ولم يكن لهم إشتغال أو مساهمة في صياغة المشهد العقدي ببلاد المغرب الإسلامي، لكن الحقيقة التاريخية تثبت عكس ذلك إذ أن الفترة الممتدة من ق2 إلى ق4هـ جري عرفت انتشارا وتوسعا في البحث الجدلي العقدي، لأنها صادفت مرحلة "إرساء المذاهب" أي توافد العديد من التيارات المذهبية العقدية التي تباينت واختلفت تصوراتها في رؤية وفهم الدين، فكان من نتائج تواجدها ببلاد المغرب أن برز جدل كلامي واسع وعكف المغاربة على الخوض في المسائل العقدية وألفوا فيها وكانت لهم مناظرات وردود جدلية بينهم وبين مخالفيهم، وهذا مرده إلى التسامح المذهبي الذي تميز به بعض الحكام المغاربة، وكذا انتقال المسائل الكلامية من المشرق إلى المغرب.

وإلى غاية القرن 5 للهجري عرف الجدل الكلامي منحنى آخر إذ انحسر وتقلص مقارنة بما كان عليه في القرون السابقة، وهذا بعد بداية السيادة المذهبية المالكية على بلاد المغرب، وكما هو معلوم موقف المالكية من الجدل الكلامي كان إعراض واعتراض عنه إقتداء بموقف عالم المدينة الإمام مالك رحمه الله، نتج عنه إغلاق باب النقاش في المسائل الكلامية وخفوت المناظرات والمساجلات الكلامية.

وبناءً على ذلك نطرح الإشكال التالي:

هل فعلا كان للمغاربة مساهمة في المجال الكلامي مثلما كان لهم دور فعال في المجال الفقهي؟ وإلى أي مدى كان لوجود المذاهب والفرق أثر في تفعيل مجالس المناظرات في مسائل عقدية تتعلق بأصول الدين؟ وما هي العوامل والأسباب التي أعطت المشروعية لتواجد وانتشار الجدل الكلامي ببلاد المغرب الإسلامي؟

سنحاول في هذا البحث أن نلامس بإيجاز رصد عوامل وأسباب انتشار وانحسار الجدل الكلامي في بلاد المغرب الإسلامي، وكذا الفحص عن حيثيات المواقف التي اتخذتها المدارس الكلامية من هذا العلم، وفي الأخير الإشارة إلى المناظرات كآلية من آليات الجدل الكلامي، بمحاولتنا معالجة أسباب شح النصوص المتعلقة بالمساجلات والمناظرات.

2. الجدل الكلامي: "ماهيته وجذوره التاريخية":

يعد علم الكلام علمًا جدليًا بامتياز، ويرتبط هذا العلم ارتباطًا وثيقًا بعلم الجدل لأنه في حقيقته هو أخذ ورد بين ممثلي تيارات عقدية متباينة ومتنافسة في الساحة الإسلامية، فهو بذلك يستدعي نقاشًا وجدالًا في المسائل العقدية المختلف فيها (كمسألة خلق القرآن، ومسألة الإمامة، وأسماء الله عز وجل وصفاته).

وللجدل الكلامي مسميات عديدة لكنها تعبير عن علم واحد، فقد يصطلح عليه بالجدل العقدي أو علم الكلام أو بعلم أصول الدين أو حتى علم الاستدلال والنظر العقلي (عبد الفتاح المغربي، 1995، صفحة 11)، ويشير عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته إلى تعريف هذا العلم بقوله: "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة" (عبد الرحمان ابن خلدون، 2013، صفحة 580)، فقد بين لنا أنه علم يدافع على صحة العقيدة الإسلامية لدى أهل السنة، بالاعتماد على البراهين والحجج العقلية.

وإلى معنى غير بعيد من تعريف ابن خلدون عرفه عبد الرحمان الإيجي بقوله: "هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية، بإيراد الحجج ودفع الشبه" (عضد الدين الإيجي، صفحة 7).

وفي نفس السياق يشير أبو حامد الغزالي إلى تعريف هذا العلم بقوله: "...إنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش البدعة، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق، على ما فيه صلاح دينهم وديناهم... ثم ألقى الشيطان في وسوس المبتدعة أمورًا مخالفة للسنة، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على

أهلها..." (أبو حامد الغزالي، الصفحات 91-92) إن هذا التعريف يبين لنا أن الغرض الأسى من هذا العلم هو الدفاع عن المذهب وحماية عقيدة أهل السنة من تشويش المبتدعة، إلا أن تعريفه كان من خلال نظرة المذهب السني إذ نجده ركز على مواجهة المسلمين لبعضهم البعض.

وفي تعريفات أخرى لهذا العلم فإننا نجد من حصره في اتجاه مدرسي معين، كتعريف الخياط الذي جعل علم الكلام خاص بالمعتزلة دون غيرهم، إذ يقول: "هو الذي يدل على عظم قدر المعتزلة في الكلام، وأنهم أرباب النظر دون جميع الناس، أنك عند ذكر مخالفة بعضهم لبعض لم تقدر أن تحكي لمخالف لهم حرفا واحدا، وإنما سألت بعضهم بعضا فأما كلمة واحدة لغيرهم فلا يقدر عليها لتعلم أن الكلام لهم دون سواهم" (أبو الحسين الخياط، 1993، صفحة 71).

إن هذه التعريفات منها من قدمت مفهوما شاملا لعلم الكلام ولم تحصره في مدرسة معينة وبينت أن غايته هو الدفاع عن الدين كله عقيدة وشريعة وأخلاقا، بإتباع أدلة وحجج مختلفة، في حين أننا نجد تعاريف من جعلته خاصا بمدرسة معينة دون أخرى، فمنهم من جعله مقتصرًا وخاصا بمذهب السلف وأهل السنة كالتعريف الذي قدمه أبي حامد الغزالي، والتعريف الذي قدمه الخياط في جعل علم الكلام مقتصرًا على المعتزلة فقط، ولهذا فإننا نأخذ بتعريف عضد الدين الإيجي لعلم الكلام لأنه لا يتقيد بإتجاه كلامي محدد.

وبلاد المغرب الإسلامي عرفت تنوعا مذهبيا في الفكر العقدي، ووجد علم الكلام راجا فيها بناء على وجود المعتننين والمشتغلين به، وهذا بعد ورود وانتقال آراء المذاهب والفرق العقائدية من المشرق إلى المغرب، خاصة وأن كل ما كان يحدث في المشرق يجد صدها في المغرب، ومن هذه المذاهب من استطاع أن يتأصل فيها ويمد جذوره ليستقطب مجموعة عريضة من الأتباع والجماهير، وكان لوجودها أثر في تفعيل مجالس المناظرات في المسائل

العقدية، ذلك أن تواجد هذه المذاهب كان ضرورة حتمية لإقامة المناظرات، إذ أنهما يرتبطان برابط قياس تلازمي تلازما بينا.

وخلالها أبان المغاربة عن قدرتهم في الرد على مخالفهم من خلال المستوى العالي في التحكم في الجدل في المسائل الكلامية المتداولة، وكذا التأليف في الرد على المخالفين إلا أن هذا الجدل في الكلام لم يستمر مطولا إذ أنه آل إلى الزوال مع بداية سيادة المذهب المالكي على بلاد المغرب، فقد أشار القاضي عياض إلى هذا بقوله: قد كانت المالكية بالمغرب والأندلس السد المانع ضد النحل والزيغ مع الاعتزال والخوارج والباطنية والظاهرية والموحدين (عياض القاضي، 1983، صفحة 26).

3. عوامل انتشار الجدل الكلامي عند المغاربة:

1.3.1 تو افد التيارات المذهبية الكلامية على بلاد المغرب الاسلامي :

شكلت بلاد المغرب أرضاً خصبةً للمذاهب الكلامية التي ما فتئت أن أخذت تتبلور في المشرق، حتى بدأت تتسرب للمغرب وتنشر أفكارها ومعتقداتها عن طريق البعثات التي كان يقوم أصحاب هذه المذاهب بإرسالها قصد كسب عدد معتبر من المغاربة كأَنْصار وأتباع، معلنة بداية شروعاتها في تحقيق أهدافها وتجسيد مشاريعها، بعد أن صعب عليها ذلك في المشرق مع وجود الدولة المركزية الأموية والعباسية بعد ذلك، ومن بين المذاهب الكلامية التي عرفت طريقها إلى بلاد المغرب نذكر:

1.1.3 الإباضية :

تعد فرقة الإباضية من أقدم الفرق دخولا إلى بلاد المغرب وأكثرهم تأثيرا وجدلا وإثارة للمسائل الكلامية، وتكاد تتفق المصادر الإباضية أن سلمة بن سعد الحضرمي كان أول من دعا إلى هذا المذهب في بلاد المغرب بتوجيه من أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في البصرة بعد سنة (95هـ/713م)، وقد كان له ولدعاة الإباضية أثر كبير في استمالة أعداد وفيرة من البربر لينجحوا في الأخير في تأسيس الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط على المذهب الاباضي (عوض خليفات، 2013، الصفحات 94-97).

وقد رصدت لنا كتب التاريخ العام والسير والتراجم الكثير من أشكال الصراع العقدي، الذي كان بين الإباضية ومخالفهم من خلال المساجلات والمناظرات الكلامية التي جمعهم وكتابة الردود والتآليف، ومن أبرز القضايا العقدية التي دار حولها إشكال كبير مسألة خلق القرآن، ومسألة المشيئة والقدر أو مبحث حرية الإرادة الإنسانية، فقد أشار ابن الصغير في كتابه أخبار الأئمة الرستميين إلى المواجهة الفكرية التي جمعت الإباضية والمعتزلة، حيث كانت بين عبد الله بن اللمطي ومعتزلي لم يذكر اسمه، إذ نادى هذا الأخير يا عبد الله... فأجابه رجل من القوم، فقال: لست أريدك، ثم نادى ثانياً فأجابه رجل ثان، فقال: لست أريدك، قال عبد الله وقد علمت أنه إياي يريد فكرهت أن أجيبه خوفاً من سؤاله، فقال: عبد الله بن اللمطي أريد، فقلت: لبيك، فقال لي هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه إلى مكان لست فيه؟ فقلت: لا فقال: هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه إلى مكان لست فيه؟ فقلت: إذا شئت، فقال: خرجت منها يا ابن اللمطي. (سبع قادة، 2015، صفحة 92).

2.1.3 المعتزلة:

عرف الفكر الإعتزالي طريقه إلى بلاد المغرب مع القرن الثاني للهجرة بمبعوث واصل بن عطاء "عبد الله بن الحارث" الذي أجابه وتبعه خلق كبير (عبد الله البلخي، 1986، صفحة 66)، وبذلك تواجد المعتزلة في أقاليم المغرب الثلاثة، إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وكان لهم دور كبير وتأثير واضح في تنشيط حركة الجدل، من خلال إثارة ومناقشة العديد من المسائل الكلامية، والخشني في طبقاته أشار إلى ماوقع من سجال بين علماء المعتزلة والمالكية أيام الأغالبة، نذكر منها المساجلة التي تمت بين المعتزلي سليمان الفراء وابن سحنون السني حول مسألة أسماء الله عز وجل، حيث طرح سليمان سؤالاً على ابن سحنون: هل سعى الله تعالى نفسه؟ وقد كان المعتزلي على يقين أن الإمام ستكون إجابته "بنعم" وبالتالي إقراره على حدوث أسماء وصفات الله تعالى كما يذهب إلى ذلك أهل الاعتزال، لكن الذي وقع أن تفتن الإمام لهذا الفخ المنصوب له وأجاب على المعتزلي بقوله: "أن الله سبحانه وتعالى سمي نفسه لنا

ولم يزل"، وله الأسماء الحسنى وهذا ما يعتقد به أهل السنة والجماعة في مسألة الأسماء والصفات على أنها قديمة غير مخلوقة. كما وقعت مناظرة أخرى جمعت بين ابن الحداد وسليمان الفراء حول مكان الذات الإلهية أو أينية الله عزوجل. (محمد الخشني، 1994، الصفحات 198-199)،

كما لا يفوتنا أن ننبه أن المعتزلة كانوا السابقين في التأليف والرد على المخالفين، حيث ذكر الخشني أن سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء ألف كتابا في "خلق القرآن" وتقييد آخر حول "مشكل القرآن"، وألف محمد بن الكلاعي الذي كان صاحب باع كبير في علم الجدل والمناظرة كتابا رد فيه على ابن الحداد القائل فيه بعدم مخلوقية القرآن وانتقضه (محمد الخشني، 1994، صفحة 221).

وخلال العهد الفاطمي كان للمعتزلة مناظرات جمعتهم مع الإباضية ومن بينها التي وقعت بين ابن حمو المعتزلي وأبي نوح سعيد بن زنگيل حول مسألة خلق الأفعال هل هي للإنسان أم لله —مقالة الكسب والاختيار— (الشماعي، 1992، صفحة 538).

3.1.3 الشيعة:

تشير بعض المصادر التاريخية على أن بدايات تواجد المذهب الشيعي في بلاد المغرب الإسلامي تعود إلى منتصف القرن الثاني للهجرة مع رسل جعفر بن محمد الصادق (ت148هـ/765م) وهما: أبو سفيان الحسن بن القاسم وعبد الله بن علي بن أحمد المعروف بالحلواني، وقد كان عملهما تمهيدا لدخول أبي عبد الله الشيعي الذي ما إن وصل إلى بلاد المغرب وتسامعت به القبائل واستقام له الأمر حتى أخذ في محاربة بني الأغلب، فانتصر عليهم وكان هذا إيذانا ببداية تأسيس الدولة الفاطمية العبيدية بالمغرب (النعمان القاضي، 1986، صفحة 26).

ومن الجدير بالذكر أن تواجد المذهب الشيعي ببلاد المغرب الإسلامي أعطى دفعة جديدة لنشاط علم الكلام والجدل في المسائل العقدية، وقد برزت مضامين جديدة للمناظرات والجدل لها علاقة بالعقيدة الشيعية كمسألة القياس وتفضيل علي بن أبي طالب

والتصليية عليه (أحمد ندات، 2017، صفحة 27)، ومن هذه المناظرات ما وقعت بين الشيعة والاباضية وما بين الشيعة والمالكية، حيث تصدى سعيد بن الحداد لمناظرة أبرز العلماء الفاطميين في المسائل التي مثلت محل خلاف كبير بين الطرفين (نجم الدين الهنتاني، 2004، الصفحات 157-158)، وعدَّ الباحث حسن حسني عبد الوهاب مجموع المناظرات التي وقعت بين دعاة الاسماعيلية وأهل السنة بنحو أربعين مجلساً (حسن عبد الوهاب، 1972، صفحة 259).

2.3 موقف السلطة السياسية من الجدل الكلامي:

بعد انقسام بلاد المغرب إلى دويلات وانتماءات سياسية مختلفة لكل منها مرجعيتها الفكرية والمذهبية، انتهج بعض أمراء هذه الدول سياسة التسامح المذهبي والديني مما سمح بالتلاقح بين مختلف التيارات العقدية فشاع الجدل وانتشرت المجالس الكلامية. وبداية مع الأئمة الرستميين الذين انتهجوا سياسة قائمة على توفير جو من التسامح والتعايش المذهبي، وهذا ما جعل حاضرتهم تستقطب العديد من المذاهب والفرق المختلفة وتشجعهم على الإقامة بها، وهذا ما أشار إليه ابن الصغير بقوله: "وأتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار ويضيف: ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته، حتى لا ترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين" (ابن الصغير، 1986، الصفحات 31-32).

وقد ذكر ابن الصغير الأجواء التي كانت عليها حلقات المناظرات بقوله إن: "الفقهاء تناحت المسائل فيما بينهم وتناظرت واشتتت كل فرقة أن تعلم ما خلفتها فيه صاحبها، ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربه وناظره الطف مناظرة وكذلك من أتى إلى حلق غيرهم سبيله كذلك" (ابن الصغير، 1986، صفحة 102)، وقد يستشف من هذا القول أن التعدد

المذهبي سمح بالتنافس والحوار الثقافي بين الاتجاهات العقدية، وبالمناظرة والجدل بين المذاهب المختلفة، فتطورت الأفكار وكثر التأليف في الرد على المخالفين

إن السياسة التي تحلى بها الرستميون فتحت المجال أمام العلماء والفقهاء على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم الفكرية للتوافد على تهرت، كالأحناف الذين كانت لهم قدم راسخة في المدينة وكان لهم مسجد خاص عرف باسمهم، ومن بين الفقهاء الأحناف الذين عاشوا في كنف الدولة الرستمية نذكر أبا مسعود وأبادنون الكوفيين (عبد الكريم جودت، 1984، صفحة 95)، كما تواجد الفقهاء المالكية في قلعة الإباضية ومارسوا شعائهم الدينية بحرية تامة وفق مذهب الإمام مالك ومنهم: أبو الفضل العباس الغدامسي (ت309هـ/921م) والفضل بن سالم البجائي (ت319هـ/931م) (ابن الصغير، 1986، صفحة 77).

وفي نفس السياق أشارت المصادر الإباضية إلى تواجد أصحاب المذهب الاعتزالي بالقرب من الدولة الرستمية، وقد جرت مناظرات ومساجلات بينهم وبين الإباضيين حول العديد من المسائل الكلامية (ابن الصغير، 1986، الصفحات 82-83)، وفي هذا إشارة واضحة إلى جو التنافس المذهبي الذي كان قائما حينذاك والذي سمح به أئمة الدولة الرستمية وشجعوه وعملوا على توفيره.

والسياسة نفسها انتهجها بعض حكام الدولة الأغلبية إذ عرف عنهم روح التسامح المذهبي وكثيرا ما كانت تعقد في بلاطهم مجالس للمناظرات حول عدة مسائل كلامية، وعرفوا بمشاركتهم في هذه النقاشات والمجادلات الكلامية حيث يشير المالكي في كتابه رياض النفوس أن الأمير الأغلي إبراهيم الثاني (261-289هـ/875-902م) كانت له مشاركة في المجلس الذي عقده حول خلق القرآن بين كل من سعيد بن الحداد وعبد الله بن الأشج المعتزلي والذي افحمه سعيد بن الحداد لتنتهي المناظرة في الأخير بقول الأمير لابن الحداد: أنت لا تضطرنني إلى مذهبك وأنا لا أضطرك إلى مذهبي (عبد المجيد بن حمدة، 1986، الصفحات 51-52)، وفي نفس السياق ذكر المالكي أن الوزير الأغلي علي بن حميد أشرف على تسير المناظرة التي كانت بين ابن سحنون وأبي سليمان النحوي (عبد الله المالكي، 1994، صفحة 449) من هنا

فإن هذه المجالس التي كانت تعقد في بلاط الأمراء تقدم لنا دليلا كافيا على الحرية المذهبية التي عرفها العهد الأغلبي في فترات كثيرة.

أما العهد الفاطمي فقد عرف فترات من التراخي اتجاه المذاهب المخالفة خاصة مع بدايات التأسيس الأولى للدولة الفاطمية، إذ عكف بعض حكامها على تشجيع تعاطي الجدل والمناظرة بين أصحاب المذاهب، وإن كان غرضهم من ذلك تحقيق أهداف سياسية بحتة تمثلت في حشد الأتباع والمستجيبين لسلطانها (مختار عمارة، صفحة 214)، ونتيجة لذلك وقعت مناظرات حادة بين علماء السنة المالكية وعلماء الإسماعيلية بحضور كبار الدعاة مثل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس، حيث أشار الخشني في طبقاته أن أبا العباس الشيعي وقعت بينه وبين سعيد بن الحداد (302هـ) مناظرة حول بعض المسائل المتعلقة بحب ومكانة وأفضلية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وحجية القياس (محمد الخشني، 1994، صفحة 199).

وفي نفس السياق ذكر الدباغ أن والي بني عبید على القيروان عبد الله المختال نادى في طلب العلماء ليناضلهم، فمضى إليه ابن التبان وكان في المجلس داعيان شيعيان يلقب أحدهما بأبي طالب والثاني بأبي عبد الله قد حضرا لمناظرة ابن التبان، فناظرهما في فضائل أهل البيت (عبد الرحمان الدباغ، صفحة 91).

3.3 دخول المؤلفات الكلامية إلى بلاد المغرب:

إننا ننسب في بداية الأمر على أن المؤلفات والمصنفات الكلامية تكون موجهة إلى طلبة العلم في المذهب حتى يستوعبوا مافيهما ويقتنعوا بها، ثم ليقوموا بنشرها لاحقا لكسب أتباع جدد والتأثير فيهم وعلى هذا الأساس فقد عرفت المؤلفات الكلامية طريقها من المشرق الى بلاد المغرب من خلال: حرص حكام وعلماء المغرب على شراء ونسخ ما يصدر منها (محمد زقاوي، 2019، صفحة 58)، حيث تذكر المصادر التاريخية أن اباضية المشرق كانوا يحرصون على ارسال الكتب والمصنفات الى اباضية المغرب وخير دليل على ذلك ما بعثه الإمام

عبد الوهاب الرستمي من أموال إلى أخوانه بالمشرق لشراء كتب وكان من بينها كتاب "الديوان العظيم"، وقد قدرت المصادر هذه الكتب بأربعين حملاً من الكتب، وبعد اطلاعه عليه حسب ما ذكر في المصادر قال: الحمد لله إذ ليس فيه مسألة عزبت عني إلا مسألتان ولو سئلت عنهما لأجبت قياساً على نظائرها (يعني أبو زكريا، 1982، الصفحات 99-100)، وفي خضم ذلك فقد وفد أبي غانم الخرساني على الإمام عبد الوهاب بن رستم وهو صاحب "المدونة" في الفقه الإباضي وأهداه نسخة منها (أبو العباس الدرجيني، صفحة 323).

ولا ننسى الدور الكبير لوفود طلبة العلم المغاربة وترددتهم على بلاد المشرق في رحلات مستمرة، إذ حرصوا على اقتناء الكتب ونسخها، فهذا الفرّج بن النصر النفوسي المعروف بالنفاث الإباضي بعدما ذهب إلى المشرق لطلب العلم وعند عودته أدخل ديوان جابر بن زيد الأزدي (ت 93هـ/711م) (محمد بوحجام، 2003، صفحة 42).

4. موقف المدارس الكلامية من الجدل الكلامي بين: الإعراض والإقبال

1.4 موقف المدرسة الإباضية:

إن في ظل المنهج السري الذي سلكه دعاة الإباضية في بداية دعوتهم بالمغرب يصعب علينا تحديد موقفهم من الجدل الكلامي، وكل مانعلمه عنهم أنهم ركزوا على تكوين الدعاة فقهاء وعقدياً وحتى سياسياً بالمشرق الإسلامي (بن ثاير العربي، صفحة 462)، وعلى الرغم من اتباعهم هذا المنهج فقد تواجد الإباضية في القيروان أيام الأغالبة وجادلوا غيرهم من المخالفين (عبد الله المالكي، 1994، صفحة 114).

وخلال العهد الرستمي اهتم علماء الإباضية بالجدل الكلامي، وأقبلوا على المناظرات وأثنوا على أصحابها فلم يرد عندهم تكفير أو تقبيح من يشتغل بها بدليل ما ذكره ابن الصغير أن من أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قريوه وناظروه أطف منظر (ابن الصغير، 1986، صفحة 102)، والمناخ السائد في الدولة الرستمية كان باعثاً على تطور فن الجدل والمناظرة وذلك من خلال سياسة التسامح المذهبي التي اتبعها الأئمة الرستميين (محمد عليلي، 2008، صفحة 72)، ومن أبرز وأشهر علماء الكلام في الدولة الرستمية نجد: مهدي

النفوسي المتوفى (196هـ/811م) الذي كان متمكنا في البرهان والاستدلال (يحي بوعزيز، 1995، صفحة 119) وقد قال عنه الدرجيني أنه تمكن من اقناع سبعين عالما ممن سماهم بأهل الخلاف إلى مذهب الإباضية ويزيد الفزاري عاش في القرن 3هـ/9م له كتاب في علم الكلام عنوانه "الرد على الروافض" (جمعية التراث، 1999، صفحة 589).

2.4 موقف المدرسة الاعتزالية:

تعد مدرسة الاعتزال أول مدرسة أقيمت على فتح الباب لمناقشة القضايا العقائدية بمنهج جدلي عقلي، وقد اتخذت من التفكير العقلي منهجا للدفاع عن الإسلام فهي بذلك لم تكتف بمناقشة المسائل العقدية بأسلوب تراثي والذي يعتمد على سرد المرويات المنقولة في تفسير الآيات التي تطرقت لمواضيع عقائدية (آسية وعيل، 2018، صفحة 8)، بل اعتمدت على إعمال العقل إلى حد تقديمه في الغالب على النص (عبد الجبار القاضي، 1996، صفحة 19).

وباعتبار أن المعتزلة كانوا السباقين لإستعمال علم الكلام في دحض حجج مخالفهم بالمشرق، فالأمر كان كذلك بالمغرب إذ انهم أقبلوا على مناظرة مخالفهم طيلة تواجدهم بأرض المغرب وكتبوا في الرد على مخالفهم، هذا ما جعل الخشني يفرد بابا في كتابه سماه "أهل المناظرة والجدل من طبقة العراقيين" (محمد الخشني، 1994، الصفحات 75-77).

3.4 موقف المدرسة السنية:

لقد إنصب تركيزنا على المدرسة المالكية من المدارس السنية باعتبارها المدرسة التي تسيدت المغرب الإسلامي، ففي بداية الأمر كان الطابع الغالب عليها هو العزوف عن الخوض في الكلام وفي المسائل العقائدية والإعراض عن التناظر والسجال، وهذا اقتداءً بالإمام مالك حيث روي عنه أقوال وأثار تنهى عن الخوض في الجدل والنقاش، وفي ذلك ورد عن الهيثم بن جميل أنه قال لمالك بن أنس: يا أبا عبد الله الرجل يكون عالما بالسنة أيجادل عنها؟ قال: لا ولكن يخبر بالسنة فإن قبلت منه وإلا سكت (عياض القاضي، 1983، صفحة 39).

وفي السياق نفسه ورد عن مالك بن أنس في مسألة الاستواء قوله: إن الله على العرش استوى، وإن السؤال عنه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وقد كان مالك بن أنس يقول: الكلام في الدين أكرهه وكان أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهنم والقدر وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل فأما الكلام في الدين وفي الله عز وجل فالسكوت أحب إلي (جعفر السلي، 2007، صفحة 209).

وبما أن المغاربة كانوا متأثرين إلى حد كبير بمالك التزموا السكوت واجتنبوا الخوض في الجدل الكلامي، فقد حذر مالك في مراسلته مع ابن فروخ من المشاركة في الجدل بقوله أنه لا يريد عليهم إلا من كان ضابطاً عارفاً بما يقول لهم، ليس يقدر أن يعرجوا عليه (محمد أبو العرب، صفحة 36).

غير أنه مع تطور الوضع الفكري الجديد وأمام شيوع الجدل وانتشار أساليب الاستدلال والرد، ظهرت فئة مناهضة من أهل السنة رأت بوجوب الخوض في الكلام ونبغ منهم رجال كانت لهم مواقفهم وبصمات خالدة في الرد على المخالفين (كالمعتزلة والإباضية، وحتى الشيعة) ومن أبرز المتكلمين نجد: محمد بن سحنون التنوخي وسعيد بن الحداد... وغيرهم

4.4 موقف المدرسة الشيعية الإسماعيلية:

تعد المدرسة الشيعية الإسماعيلية من بين المدارس الكلامية التي فتحت المجال للجدل والنقاش في المسائل العقائدية، حتى هناك من قال أن الشيعة هم الذين أسسوا علم الكلام، وعلى أئمتهم تتلمذ علماء المعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية (عبد الله نعمة، صفحة 42).

وقد اهتموا بعلم الكلام والجدل فيه فلم يرد عندهم كراهية من يشتغل به كما كان الحال مع المالكية، بل إننا نجد الشيعة ببلاد المغرب الإسلامي قد شجعوا على تعاظم مختلف أنواع العلوم كالفلسفة والتأويل والجدل وشجعوا على عقد المناظرات بين المخالفين (أحمد ندات، 2017، صفحة 30)، حتى وإن كان هذا لتحقيق أغراض سياسية تمثلت في نشر نفوذهم في أواسط العامة وإقناع الناس بالتخلي عن مذهبهم واعتناق المذهب الشيعي

(عيسى ضيف الله، 2024، صفحة 75)، حيث أن انتشار هذه المناظرات يؤدي إلى تناقلها بين الناس وتردها على الألسنة.

5. المناظرة كوسيلة للجدل الكلامي: بين شح المادة وصعوبات التوثيق

نشأت المناظرات في مرحلة متزامنة مع نشوء الجدل الكلامي (عبد الغني الشيخ، 1983، الصفحات 36-37) وكانت وسيلته وأداته أو بالأحرى آلية من آلياته، غير أن المصادر لا تطلعنا على معلومات كافية ومفصلة عن المناظرات الكلامية التي كانت في بلاد المغرب الإسلامي، بالرغم من كثرتها، فما هو السبب وراء ذلك؟

إن ندرة التوثيق في هذا المجال تفسر وتعلل بأمور عدة منها:

- 1- طابع التعقيد الذي تتصف به المناظرة، حيث أنه قد يصعب على الناقل تدوينها بحذافيرها، خاصة وأنها تحتاج إلى إلمام بعلوم عدة وبلوغ مستوى فكري وعلمي رفيع، وكذا التمكن من معرفة وسائل وأساليب الجدل، بالإضافة إلى أن طول وتشابك مواضيع المناظرة واتصالها ببعضها البعض يجعل من العسير نقلها بتفاصيلها كما هي.
- 2- إن الكثير من المناظرات وصلتنا ناقصة ومبتورة وأحيانا يكون فيها غياب تام لمحتوياتها وموضوعاتها، فلا نجد فيها الأدلة وكيفيات الاستدلال ولا حتى الحجج والبراهين المستخدمة ليتمكن الباحث في الأخير من ترجيح الكفة ومعرفة الغالب من المغلوب، وخير دليل على ذلك المناظرة التي ذكرها ابن الصغير المالكي وكانت بين مهدي النفوسي الإباضي وأحد وجوه المعتزلة بقوله أنه جرت بينهما مناظرة والناس يعلمون ما يقولون، فلم يظفر أحد بصاحبه ثم دخلا في مناظرات لم يفهما أحد غير الإمام، ثم دخلا في وجوه لم يفهما أحد ولا الإمام فما كان بأوشك من أن ظفر به مهدي. فهذا إذا نموذج لمناظرة من مناظرات عدة كان فيها غياب تام لمحتوياتها وموضوعاتها.

- 3- إن في هذه الفترة الزمنية لم تشر لنا المصادر التاريخية إلى وجود كتبة متخصصين في تقييد المناظرات، وغالبا ما تم تدوين المناظرات ونقلها لنا عن طريق الرواية والسماع عن

من سبق في فترات متأخرة عن وقوعها، ولا يكون الناقل شاهد عيان لها، وخير مثال على ذلك المناظرات التي نقلها لنا ابن الصغير المالكي والتي وقعت بين الاباضية والمعتزلة حيث لم يكن هو شاهد عيان لها بل دونها بالمشافهة فقط.

4- بالإضافة إلى أنه هناك العديد من الكتب التي لازالت مخطوطة وقسم كبير منها لا زال محفوظا لدى أتباع المذاهب (عوض خليفات، 2013، صفحة 41) تحتاج إلى دراسات تميط اللثام عنها وتوضيحها، فوجود هذه المصادر الدفينة يجعلنا لا نستبعد أنها تحتوي في طياتها ولو على نذر القليل من المناظرات الكلامية، فتحقيقها ومراجعتها بإستطاعته أن يسد لنا العديد من الثغرات ذات الصلة بالموضوع.

5- إننا لا نظفر بمادة وفيرة في المصادر التاريخية حول المناظرات بسبب منهج السرية والتقية الذي اتبعه بعض أصحاب المذاهب، إذ أننا نجد العديد من العلماء يمتنعون عن الإحتكاك بغيرهم من المخالفين في المذاهب وكثيرا ما كانوا يسايرون الإتجاه السائد، وأغلب الظن أنهم كانوا يعرضون عن السجال خوفا من إدارة السلطة السياسية أو الدينية وخير دليل ما وقع للإمام سحنون مع ابن أبي جواد...

كما أنه ما يمكن ملاحظته أن جل المناظرات التي تم تدوينها كانت من داخل المذهب فقط، ولا نجد الإخبار عنها أو ذكر لها من طرف المخالفين بمختلف مذاهبهم العقدية، وتكون أغلبها تنتصر وترجح الكفة لمذهبها على حساب المذهب المخالف، وخير دليل ذلك هو المناظرات التي كانت بين الإسماعلية وأهل السنة حيث دونتها المصادر السنية بالتفصيل وخلصت إلى غلبة المناظر السني أمام مخالفه الإسماعيلي، وفي المقابل أحجمت المصادر الإسماعيلية عن تدوين شيء عنها وهذا ما يلاحظ على أغلب الكتابات، أنها دائما تتحيز وتنتصر لمذهبها على حساب المذهب المخالف، ففي هذه الحالة وفي ظل غياب مصادر المخالفين يصعب التسليم بصحة هذه المناظرات.

6. خاتمة:

نخلص ختاماً إلى أن بلاد المغرب لم تكن بمعزل عن التحولات الفكرية المذهبية التي عرفها المشرق الإسلامي، فكل ما كان يحدث في المشرق إلا ويجد صدها بالمغرب. ونتيجة لذلك عرف الجدل الكلامي رواجاً - وإن لم يكن بنفس الحدة التي كان عليها في المشرق - بناءً على تواجد الإتجاهات الكلامية التي عرفت طريقها من المشرق إلى المغرب بداية من القرن الثاني للهجرة فبدأت دائرة الجدل الكلامي تنتشر وتتوسع. وقد كان للمغاربة مساهمة فعالة في هذا الجدل الكلامي، لذلك ينبغي أن توضع مساهمتهم ضمن مساهمات المسلمين الجادة في الدراسات الكلامية حيث أنهم أبانوا على مقدرة كبيرة في الرد على مخالفهم من خلال التحكم في فنيات الجدل والمناظرة ومن خلال عرض المسائل الكلامية والإستدلال عليها في مؤلفاتهم أو من خلال المناظرات والمساجلات مع بعضهم البعض.

ولا شك في أن رحلات طلب العلم مثلت جسراً لانتقال الدرس الكلامي، الذي ساعد على انتشاره وتوسعه سياسية التسامح المذهبي التي تحلى بها بعض الحكام المغاربة خلال فترات حكمهم، إذ كان بعضهم يحرص على جمع علماء الفرق للسجال والتناظر وكان هذا خلال السنوات الهجرية الأولى بوجود هذه المدارس الكلامية (من معتزلة واباضية وشيعية) الذين أقبلوا وشجعوا على تعاطي الجدل والنقاش في المسائل الكلامية (كخلق القرآن، ومسألة الإمامة وصفات الله وأسمائه) وهذا إلى غاية القرن الخامس للهجري الذي عرف سيادة المذهب المالكي فيه وكان الغالب عليه النهي واجتناب الخوض في المسائل الكلامية ومن هذا التاريخ يمكننا أن نقول أنه بدأت الدراسات الفقهية تزدهر وتنتعش وقلت وخفتت الدراسات الكلامية وأغلق باب الإجتهد وتم الإكتفاء بالتقليد فقط.

علاوة على ذلك يمكننا القول أن الصراعات السياسية في بلاد المغرب انعسكت بشكل مباشر على علم الكلام، حيث إن جميع المذاهب العقيدية باستثناء المذهب العقدي الواصلي التي دخلت إلى بلاد المغرب استطاعت أن تنجح في تدشين كيانات سياسية بعد بذل كل مذهب

منها جهدا معتبرا لنشره بين المغاربة، وإن دخلت في صراعات دائمة فيما بينها وظفت خلالها كل الوسائل والطرق الممكنة وقتها بهدف السيطرة المذهبية العقدية الأحادية على النطاق كلها.

ومما يدعو فعلا للتأمل هو ضياع وإتلاف العديد من مؤلفات المذاهب الكلامية وما وصلنا عنها يكون في شذرات في مؤلفات خصومها، فغالبا ما تجعل وجهة نظر الخصم في موضع المنهزمين والمحجوبين وغالبا ما يكون فيها غياب تام لمحتوياتها وموضوعاتها، فنقص النصوص المتعلقة بالمنظرات وضياع أغلبها سبب في عدم وضوح مساهمة المدارس الكلامية بالمغرب في شكل جيد.

7. قائمة المراجع:

- ابن الصغير. (1986). أخبار الأئمة الرستمين. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أبو الحسين الخياط. (1993). الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، تحقيق وتعليق: نيبج، ط2. بيروت: الدار العربية.
- أبو العباس الدرجيني. (بلا تاريخ). طبقات المشائخ، ج2. قسنطينة.
- أبو حامد الغزالي. (بلا تاريخ). المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق: محمد أبوليلة. واشنطن: نشر جمعية البحث في القيم والفلسفة.
- أحمد ندات. (5 ديسمبر، 2017). المجالس في المغرب خلال العهد الفاطمي. المجلة التاريخية الجزائرية، ع5.
- أسية وعيل. (سبتمبر، 2018). المعتزلة: أول مدرسة كلامية استعانت بالفلسفة اليونانية. مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج5، ع13.
- الشماخي. (1992). السير، ج2. سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة.
- النعمان القاضي. (1986). افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشرابي. تونس: الشركة التونسية للتوزيع.
- بن ثاير العربي. (بلا تاريخ). السجال الكلامي بين المدارس الكلامية. مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية، مج2، ع25.

- جعفر السلمي. (2007). الأزهار الطبية النثر فيما يتعلق ببعض العلوم من المبادئ العشر، ج2. تطوان: مطبعة الخليج العربي.
- جمعية التراث. (1999). أعلام الاباضية منذ ق1 هجري الى العصر الحاضر. غرداية: المطبعة العربية.
- حسن عبد الوهاب. (1972). ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ج1. تونس: مكتبة المنار.
- سبع قادة. (2015). الصراع المذهبي العقدي بالغرب الإسلامي أسسه، مجالاته وانعكاساته (أطروحة دكتوراه). وهران: جامعة أحمد بن بلة.
- عبد الجبار القاضي. (1996). شرح الأصول الخمس، تحقيق: عبد الكريم عثمان. القاهرة: مكتبة هبة.
- عبد الرحمان ابن خلدون. (2013). مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الواحد وافي، ج3. مصر: دار النهضة.
- عبد الرحمان الدباغ. (بلا تاريخ). معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: محمد الأحمدى. مصر: مكتبة الخانجي.
- عبد الغني الشيخ. (1983). النثر الفني في العصر العباسي الأول، ج1. الجزائر.
- عبد الفتاح المغربي. (1995). الفرق الإسلامية الكلامية، ط2. القاهرة: مكتبة وهيبة.
- عبد الكريم جودت. (1984). العلاقات الخارجية للدولة الرستمية. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- عبد الله البلخي. (1986). فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق: فؤاد السيد، ط2. تونس: الدار التونسية.
- عبد الله المالكي. (1994). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسیر اخبارهم وفضائلهم واخبارهم واوصافهم، تحقيق: بشير بكوش، ج1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- عبد الله نعمة. (بلا تاريخ). فلاسفة الشيعة، حياتهم، آرائهم. بيروت: مكتبة الحياة.

- عبد المجيد بن حمدة. (1986). *المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية*. تونس: دار العرب.
- عضد الدين الايجي. (بلا تاريخ). *المواقف في علم الكلام*. بيروت: عالم الكتب.
- عوض خليفات. (2013). *نشأة الحركة الإباضية، ط2*. لندن: دار الحكمة.
- عياض القاضي. (1983). *ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: عبد القادر الصحراري، ج2*. المملكة المغربية: وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية.
- عيسى ضيف الله. (ماي، 2024). *الشيعة الإسماعيلية واساليبهم الدعائية ببلاد المغرب الإسلامي*. مجلة عصور الجديدة، مج14، ع1.
- محمد أبو العرب. (بلا تاريخ). *طبقات علماء إفريقية*. لبنان: دار الكتاب اللبناني.
- محمد الخشني. (1994). *طبقات علماء إفريقية، تحقيق: محمد زهم، القاهرة*.
- محمد بوحجام. (2003). *التواصل الثقافي بين عمان والجزائر*. سلطنة عمان: مكتبة الضامري.
- محمد زقاوي. (2019). *الاتجاه الكلامي عند الاباضية بالغرب الإسلامي (أطروحة دكتوراه)*. الجزائر: جامعة مصطفى اسطنبولي.
- محمد عليلي. (2008). *الإشعاع الفكري في عهد الأغالبة والرستميين (مذكرة ماجستير)*. تلمسان: جامعة ابي بكر بلقايد .
- مختار عمارة. (بلا تاريخ). *مجالس الحكمة في الدولة الفاطمية وأهدافها المذهبية والسياسية*. مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والإجتماعية، مج12، ع1.
- نجم الدين الهنتاني. (2004). *المذهب المالكي بالغرب الإسلامي*. تونس.
- يحي أبو زكريا. (1982). *سير الأئمة وأخبارهم*.
- يحي بوعزيز. (1995). *الموجز في تاريخ الجزائر*. وهران: ديوان المطبوعات الجامعية.